العلمانية

درج الكتاب والمتحدثون فى الشرق العربى على نطقها بفتح العين «عَلْمانية» نسبة على غير قياس إلى العالَم - بفتح اللام - ومصدره «عَلْم» بفتح العين وسكون اللام.[١] وهى ترجمة لكلمة «Cecularism» الإنجليزية والعلمانى «Secular».

ونسبتها إلى العالم والعلم جاءت من اتجاه العلماء والمفكرين المضادين لفكر الكنيسة الجامد هناك وتحررهم من سيطرته، وانطلاقهم بحرية إلى التفكير فى الكون أو العالم وما يمكن أن يستمدوه منه، من غير أن يتقيدوا برأى الكنيسة لتنظيم شئونهم.

وكان الناس قد ضاقوا ذرعًا من تحكم رجال الدين برأيهم الجامد فى تفكير الناس وتنظيم حياتهم، واتهامهم كل من يخرج على رأيهم بالخروج على الدين، ومحاكمتهم والحكم عليه بأقسى أنواع العقاب..[٢]

فلما انتصرت الثورات فى أوربا على الإقطاع ورجال الكنيسة، احتضنت الحكومات رأى المفكرين فى عزل الكنيسة، ومنعها من التدخل فى شئون الحياة، وحصرها داخل جدرانها لا شأن لها بشىء مما يجرى فى حياة الناس اللهم إلا فى الزواج والطلاق..

أما ما يتصل بالقانون وشئون التعليم، والتفكير وتنظيم حياة الناس فى مختلف

---

(١) جاء فى المنجد فى مادة «علم أن عَلْم» مصدر العالم وهو الكون والمخلوقات.

(٢) تذكر كتب التاريخ أن الذين صدرت ضدهم أحكام من الكنيسة بلغوا ٣٤٠ ألفًا حتى ١٨٠١ أحرق منهم أحياء ٢٠٠ مائتان، وقاومت الكنيسة رصف شوارع باريس كشوارع الأندلس، كما قاومت التطعيم الذى رآه العلماء لأنه ضد إرادة الله، ولما قال «دى رومنيس» أن قوس قزح ليس قوسًا حربيًّا بيد الله - كما تقول الكنيسة - حبس حتى مات وأحرقت جثته وحاكموا «غاليلو» وسجنوه حتى مات.. وبعد نحو ٣٠٠ سنة وفى منتصف هذا القرن تطلب إحدى الهيئات إعادة محاكمته لتبرئته!!

المجالات، فلا شأن لرجال الكهنوت به، بل هو من اختصاص الناس، يتصرفون فيه كما يشاءون وحسب عقولهم ورغباتهم..

وقد كانت سلطة الكنيسة فوق سلطة الحكومات والملوك، حتى كان بابوات روما يحكمون على الملوك الذين لا يذعنون لهم بالحرمان من الجنة، فيسقطون عن عروشهم، أو يمشون حفاة إلى مقر البابا فى روما يستغفرون ويعتذرون، حتى يعفو عنهم، ويعيدهم إلى عروشهم..

فلما انتصرت الثورات أزالت هذا السلطان، وحجمته، وجعلت نفوذ الكنيسة لا يتعدى جدرانها، أما شئون الحياة فهى فى يد الشعب وسلطة الحكومة تقرر فيه ما تشاء..

ومن هنا كان تقرير مبدأ فصل الدين عن الدولة، بمعنى إبعاد رأى الدين ورجاله عن التدخل فى شئون الحكم والدولة.. هو أهم ما نتج عن هذه الثورات..

وكان انطلاقهم فى التفكير بحرية تامة، دون خوف من سلطان الكنيسة، فازدهرت العقول أكثر من ذى قبل بعد أن كانت الكنيسة تطاردها، وترتب على هذا أن اعتد العلماء بتفكيرهم وعقلهم، وأعلنوا أنهم لا يقرون إلا ما وصل إليه العقل بطريق التجربة والاستقراء المادى، وتنكروا لكل تفكير لا يستند على هذا، فلم يعتدوا بالأفكار والمعلومات الغيبية ومنها ما جاءت به الأديان، وأنكروها وأهدروها.. ورفضوا الإذعان لها.. لأنها لا تثبت بالدلائل المادية التى اعتمدوا عليها، فكان العلم التجريبى هو طريقهم للاقتناع ويكاد يكون معبودهم.

ومن هنا يصح فى رأيى ورأى الكثيرين من المثقفين ثقافة غربية من الأساتذة المسلمين، أنه يمكن أن نسمى هذا الاتجاه «بالعلمانى» بكسر العين نسبة إلى العلم التجريبى المادى الذى لم يعتمدوا سواه فى الوصول إلى الحقائق، وترتب عليه إنكار الله والرسل والملائكة.. إلخ..

والعلمانية بكسر العين وبهذا التوجيه تلتقى مع العلمانية بفتح العين المأخوذة من الاتجاه العالمى فى العلم، أى الذى لا يتقيد برأى الكنيسة، فكلاهما

«العلمانية» بفتح العين أو بكسرها يلتقى مع الآخر فى نفس الطريق، وفى النتائج.. ومن هنا أرى أن القول بنطقها بفتح العين فقط تحكم لا مبرر له..

ولم يكن معنى هذا الاتجاه أن الغربيين نفضوا الدين من قلوبهم، وتنكروا له، إذ أن هذا المعنى لم يتطرق إلى بال الذين حجموا رأى الكنيسة وجعلوه داخل جدرانها، ولم يريدوه، حين قرروا ما سمى بفصل الدين عن الدولة، بل تركوا الدين للأفراد، هم أحرار فى أن يتدينوا أو لايتدينوا، والكنيسة حرة داخل حدودها، وفى المنشآت الخاصة بها، تدعو إلى الدين وتدعيمه فى النفوس، دون أن تطرق إلى حياة الناس المدنية وتنظيمها، التى هى من اختصاص الدولة..

فالدول التى فصلت رأى الدين ورجاله أو أبعدته عن التدخل فى شئون إدارتها للحكم، لم تعن بذلك مصادرة الدين فى النفوس، كما لم تعن بمصادرة الكنيسة نهائيًا، والحيلولة بينها وبين أداء رسالتها فى النطاق المحدد لها، بل كانت الدولة أحيانًا تساعد الكنيسة فى أزماتها، وفى جميع الضرائب والمستحقات لها..

وإذا كان هناك من رجال الحكم ملحدون، ففيهم المؤمنون بدينهم فى النطاق العلمانى، أعنى عدم التأثر برأى الكنيسة والدين فى إدارتهم شئون الحكم..

بل إن بعض الحكام نراهم الآن يتمسحون بالدين، تقربًا إلى قلب الشعب وكسبًا لأصواته.

فقد كتب الأستاذ أحمد بهاء الدين فى عموده اليومى فى «الأهرام» ١٩٨٤/١٠/١٢ بمناسبة الانتخابات الأمريكية قال: بنى ريجان حملته الانتخابية على أساس أن الإنجيل فيه الرد على كل مشاكلنا، وصدرت منشورات عنه تقول: «عزيزى الناخب المسيحى، إننا نخاطبك بحكم مسئوليتنا فى تنفيذ إرادة الرب».

ورد عليه منافسه بأنه مسيحى غير طيب، لأنه يتحيز للأغنياء ضد الفقراء، ولا يتصدق للجمعيات الخيرية، ولا يذهب للكنيسة إلا كل بضعة شهور، ولأسباب سياسية، لا يمارس تقاليد العائلة المسيحية فله أحفاد لا يعرفهم، ولم يرهم فى حياته، وأن واضعى الدستور أقاموا سدًّا بين الدين والدولة.. إلخ».

«وقد دعا ريجان إلى إدخال تدريس الدين فى المدارس، وإقامة الصلاة فيها، وإلغاء القانون الذى يبيح الإجهاض».

وقد أجرت مجلة أمريكية ذات نفوذ، استقصاء عن موضوع علاقة الدين بالدولة أو السياسة بين كبار رجال الجامعات من كل الاتجاهات، وجاءت النتيجة أن الدين لم يكن مفصولاً أبدًا عن السياسة فى الحياة الأمريكية الراقية، والقول بالفصل بين الدولة والدين بجدار سميك غير حقيقى، وإنما الاحتياط كان ضد تدخل المؤسسات الدينية فى التأثير على سياسة الدولة.. ولذلك تعهد «كنيدى» وهو أول رئيس كاثوليكى - للولايات المتحدة - البروتستانتية بأنه لن يقبل رأى البابا فى التدخل فى قراراته السياسية خارج عقيدته الدينية الخاصة»

ولعل هذا يفسر لنا مدى التعاطف والتعاون مع المبشرين من الناحية الدينية بجوار الأهداف السياسية للحكم فى الغرب.

وقد ترك الحكم للكنيسة أن تعمل لتدعيم الروح الدينية الأخلاقية فى نفوس الشعب، وأن تقيم المؤسسات التى تخدم هذا الغرض، وتنفق عليها من دخلها وهى من التبرعات الشعبية التى تحصل عليها.

والكنيسة تنهال عليها التبرعات من المؤمنين بدينهم المسيحى وتستعين بها فى إنشاء المؤسسات التى تخدم أغراضها حتى خارج حدود دولتها، مما رأيناه حين تكلمنا عن نشاط المبشرين فى شرقنا العربى وفى غيره من البلاد ورأينا مدير الجامعة الأمريكية فى بيروت يتحدث عن ذلك بكل صراحة، كما ذكرنا من قبل.

فالذين رفعوا شعار العلمانية فى الدول الغربية أول الأمر، لم يحاربوا الدين وأثره فى النفوس، ولم يحاربوا المؤسسات الدينية، بل تركوها تعمل منكمشة داخل حدود عينوها لها.. واقتصروا فحسب، على فصل الدين ورجاله عن التأثير على أسلوب الحكم وما يتخذه من قرارات، وإنهم لن يتخذوا قرارًا من منطق أن الدين قد أمر به أو أن رجاله قد أشاروا به.. بل إنهم يتخذون قراراتهم من منطق تفكيرهم فى تحقيق مصالح الشعب، وكانت هذه هى المرحلة الأولى للعلمانية، ويطلقوا عليها «العلمانية المعتدلة»..

والفرنسيون يطلقون عليها بلغتهم «لاييك» «Laique» ولا يكيين مثل علمانيين.. وبنفس اتجاهها..

العلمانية المتطرفة:

لكن العلمانية أخذت شكلاً حادًا متطرفًا على يد ماركس وأصحابه، من مؤسسى المذهب الشيوعى أو الاشتراكى المتطرف.. على أساس مادى صرف.. فلا إله والحياة مادة، ولا رسل ولا كتب منزلة ولا أديان.. ولا مؤسسات دينية: مساجد أو كنائس أو معابد..

وإذا كان للكنائس فى ظل العلمانية المعتدلة، سلطتها الخاصة داخل إطار محدود، فإن مذهبه لم يعترف بكنائس ولا سلطة لها، إنما السلطة كلها فى يد الدولة والحزب الشيوعى ، ولا مكان للأديان ومؤسساتها فى مذهبهم.. وإذا وجدنا مساجد أو كنائس أو معابد فى الدولة الماركسية فإن وجود ذلك شكل مرحلى، وتحت ضغط ظروف سياسية ومصالح تقتضيها مصلحة الدولة العليا كما نرى الآن..

وإنك لتجد هذه العلمانية المتطرفة فى الدول الشيوعية، على حين تجد العلمانية المعتدلة فى الدول الأخرى غير الشيوعية.. وكانت هذه العلمانية المعتدلة مرحلة من مراحل العلمانية، قفز منها «ماركس» وشيعته إلى علمانية متطرفة.. لا مهادنة بينها وبين الأديان، ولا يقبل فى أحزابها إلا الملحدون المتطرفون فى حرب الأديان، ومن يشتم منه رائحة التدين أو المهادنة مع الدين يفصل من الحزب ويضطهد.

وأيًا ما كان: علمانية معتدلة أو علمانية متطرفة، فالقاسم المشترك بينهما هو إبعاد الدين وآرائه عن التدخل فى شئون الدولة، وما تسنه وتشرعه من قوانين وأنظمة.

ولقد نشأ هذا الفكر وما تلاه من نظام أخذت به الدول فى الغرب بعد انتصار الثورات على الإقطاع والكنيسة لظروف خاصة فى المجتمع الغربى، ولم ولن يكون لها وجود فى مجتمعنا، ومع ذلك تسرب إلينا وتأثرنا به..

فما مدى تأثرنا نحن المجتمعات الإسلامية بهذا الاتجاه، فيما تأثرنا به من ملامح الغرب وثقافته وأنظمته.؟

هنا أحب أن أترك هذا الرجل من رجالات الأزهر الذى درس أيضًا فى ألمانيا وعاد ليكون أستاذًا للفلسفة فى جامعة الأزهر، ثم وزيرًا للأوقاف وشئون الأزهر، ثم مديرًا لجامعة الأزهر يحدثنا عن ذلك فى كتابه «الفكر الإسلامى والمجتمع المعاصر مشكلة الحكم والتوجيه[١]. عليه رحمة الله فيقول:

الاتجاه العلمانى:

اقتحم الاتجاه العلمانى مجتمع المسلمين فى أى مكان احتله المستعمر الصليبى، منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادى، وقبله فى بعض البلاد الإسلامية، وأخذ يسعى لتوطيد قدمه، وشغل الفراغ الذى تركه الإسلام فى تراجعه فى حياة المسلمين.

وكان يعتمد هذا الاتجاه على قوة المستعمر فى احتضانه ودفعه، كما يعتمد على ضعف الذين احترفوا الدعوة الإسلامية.

اقتحم الاتجاه العلمانى مجال التعليم فى المجتمع الإسلامى، وبعد فترة من الزمن تمكن منه، واستطاع أن يكون الأساس فى تخريج المثقفين والمفكرين فى أجيال هذه المجتمعات...

ونزل مجال التشريع والقضاء واستطاع أن يرد فقه الإسلام عن الحياة إلى علاقة الأسر المسلمة وحدها.. فى العلاقة الزوجية والأحوال الشخصية..

ونفذ إلى التوجيه فى المجتمعات والحياة العامة، وعارض بنزعته اللادينية فى صلابة وجرأة، رأى الإسلام فى حلول المشاكل أو فى قيامها...

واستولى على نظام الحكم بفلسفته الإنسانية، التى تسقط الدين واعتباره، وتولى عناية بالإنسان دون حاجة إلى ما يسمى هداية السماء وكتاب الله.. وأخذ يغالب الإسلام فى عنف طول فترة الاستعمار..

---

(١) نشر الدار القومية ١٩٦٥. من ص ٤٧٧ وما بعدها.

وبعد استقلال المجتمعات الإسلامية، لم يكن الوضع أحسن بالنسبة للإسلام، فى عهود الحكم الوطنى، لأن هذا الحكم الوطنى اعتمد على الجيل الجديد الذى نشأ فى ظل الاتجاه العلمانى فى المدارس العصرية، فكان نداء هذا الحكم بعد الاستقلال: «الدين للديان، والوطن للجميع».

وكان شعاره: الحياة المعاصرة، واستكمال اقتباس نظمها السياسية والإدارية والتشريعية والتعليمية والفنية والعلمية والأدبية، من الغرب، حتى يصبح المجتمع حضاريًّا، وليس رجعيًّا متخلفًا...

وحملت كلمة: الحضارة المعاصرة كل معانى البعد عن الماضى وتراثه، كما حملت كلمة الرجعية، كل معانى البغض والكراهية له، مهما تكن له من قيمة ذاتية، ومهما دخل فيه من تعاليم الإسلام ومبادئه.

وشعار: «الوطن للجميع» أصبح (فى ذهنهم) يخفف من وزن الإسلام ويقلل من اعتباره.

ولو أن الاتجاه العلمانى ونزعة اللادينية فى المجتمعات الإسلامية، كان يشدد على إبعاد الديانات الأخرى فيها، وبالأخص المسيحية، على نحو ما يشدد على الإسلام، ويهاجمها كما يهاجمه، لكان صادقًا فيما يرى، ومؤمنًا بنزعته.

«ولكن الوقت الذى ينكر فيه هذا الاتجاه العلمانى على الإسلام توجيهه وتربيته، ويصفها بالتخلف والرجعية، نراه يعين على إنشاء مدارس الإرساليات الأجنبية التبشيرية فيه، ويصفها بالتقدمية... ذلك لأنه يبغى منها هدفًا صليبيًّا، استعماريًّا...

هو تحطيم القيم الإسلامية، كى يخلق فراغًا فى النفوس يسكنه هو نفسه، بما يفرض من التبعية الفكرية والسياسية والتشريعية والإدارية والتعليمية، والتوجيهية، والفنية للغرب، ولما يقوم به اليوم وغدًا، من نظم للحياة الإنسانية فى مجتمعه..

وإذن لم يكن غريبًا أن تُنَاقَش قضية وحى القرآن يومًا ما، فى جامعة فؤاد الأول (القاهرة) باسم العلم ومنهجه فى البحث.. ولم يكن من المستغرب أن يحتكم

إلى آثار المجتمع الجاهلى فى الجزيرة العربية، قبل أن يحتكم إلى ما ورد فى القرآن من قصص تاريخية».

يشير هنا إلى ما قرره الدكتور طه حسين فى كتابه «فى الشعر الجاهلى» ١٩٢٦م.

«لم يكن من المستغرب ذلك، لأنه الاتجاه العلمانى، ونزعته اللادينية، بالنسبة للإسلام وحده، ولأنه اتجاه المجددين العصريين فى المجتمع الإسلامى فى البلاد الإسلامية».

«ودرجت الأجيال الجديدة فى عهود الاستعمار، ثم فى عهود الحكم الوطنى، على النزعة اللادينية التى مكن لها الاتجاه العلمانى».

«إن ممارسة الأجيال الجديدة للحكم الوطنى فى المجتمعات الإسلامية بعد الاستقلال السياسى، تسير على تقليد الغرب فى كل ما له من نظم».

«والقوة التى تمثل الماضى فى المجتمعات الإسلامية لم تكن تستسلم للاستعمار إبان قوته، ولكنها تستسلم للحكم الوطنى بعد الاستقلال، أكثر من أن تعارضه، لأنه دفع بتلك القوة (أى الدينية) إلى محيطه فى النفوذ والسياسة.. مع أن المستعمر لم يستطع أن يمد نفوذه مدًّا مباشرًا، أو فى فاعلية نافذة إلى أرباب هذه القوة، لأنه كان يخشى إثارة الشعور العام، وكان يترك أمر الضغط عليها إلى «الوطنيين» أنفسهم ممن هم فى خدمته».

وانتهى الدكتور فى بحثه إلى ما يأتى من رصد آثار هذه العدوى فينا:

* اهتزت القيم الأصيلة فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة.
* وغلب الاتجاه العلمانى بما ينطوى عليه من مطاردة الإسلام، ومن ميل قوى لتقليد الغرب.
* وتأرجحت المجتمعات الإسلامية فى مقاييسها، تبعًا لما تقتبسه من الغرب.
* وبعدت الأصالة فى المجتمعات الإسلامية، وبعد الاستقلال الفكرى والاقتصادى والسياسى إلخ..». ا. هـ بتصرف

رأى آخر:

أما الكاتب والمفكر الإسلامى إبراهيم البطاوى فيتناول العلمانية بالشرح والتحليل وذلك فى مقدمة كتبها لكتاب «دلائل النبوة» للدكتور المرحوم الشيخ عبد الحليم محمود[١] فيقول:

«إن علمانى بفتح العين لا بكسرها، كما يخطئ الأكثرون متوهمين أنها نسبة إلى العلم، وليست به، فالعلمانية هنا ترجمة عليها بصمات أداة النسب السريانية لكلمة «لاييك» الفرنسية ويقصدون بها «اللادينية» منسوبة إلى «العلم»، وهو العالم أو الدنيا، التى هى فى مقابل الآخرة والدين.

(ويسمى هذا اتجاهًا «دهريًّا»، مثل اتجاه الذين حكى عنهم القرآن عدم إيمانهم بالله والآخرة)[٢].

وهذا التعبير «لاييك» دهرى علمانى، نشره اليهود فى أوربا، وفى فرنسا بالذات فيما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، حيث تمكن دعاة العلمانية من الاستيلاء على الحكم فى فرنسا بالانقلاب العسكرى التشريعى الماسونى، الذى قام به نابليون وشيعته بتخطيط وتمويل اليهود، مستغلين ظاهرة فساد رجال الدين فى أوربا، وبغض الناس لسيطرتهم على حكام البلد آنذاك، مع هذا الفساد والانحراف والقسوة المفرطة التى تجلت فى محاكم التفتيش الكنسية التى كانت نقضًا للمسيحية ذاتها».

«فأعلنت الثورة نهاية حكم الكنيسة بسيادة العلمانية الثورية، التى جعلت شعارها تجريد الدولة من كل أثر للدين فى الحكم والتشريعات، أو برامج التعليم ونظمه كما رأينا فى قلب الكثلكة فى غرب أوربا ووسطها.

«وبعد ذلك بقليل فعلت نفس الشىء، وزيادة فى الوحشية على المتدينين،

---

(١) نشر دار الإنسان للتأليف والترجمة والنشر.

(٢) فى قوله تعالى: ﴿وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾ [الجاثية ٢٤] وهم الماديون الذين رد عليهم جمال الدين الأفغانى فى كتابه «الرد على الدهريين» قديمًا وحديثًا.

بالثورة الشيوعية الإلحادية فى قلعة الأرثوذكسية فى شرق أوربا المسيحية، ثم اتجهت العلمانية للقضاء على الإسلام كما فعلت بالمسيحية فى أوربا، فكونت حزب الاتحاد والترقى، أو «تركيا الفتاة»، واستولى «أتاتورك» وشيعة الماسون على الحكم، فى دولة الخلافة العثمانية فى تركيا، وأعلن علمانية الدولة، وأنها لا دينية[١]...

وكان دعاة الماسون والعلمانية فى معظم دول الإسلام قد مكن لهم المستعمرون، فآل إليهم أمر التشريع والتعليم والإعلام، وأمدهم المندوبون الساميون، مثل كرومر فى مصر والشرق الأوسط، و«ليونى» فى أفريقية، و«جورو» فى سوريا، و«كوكس» فى العراق بصلاحيات مطلقة للقيام بدورهم فى التخريب اللادينى والإنحلالى فى كل المجالات.. واهتم العلمانيون أو الدهريون العملاء بتنفيذ مخططات أسيادهم وأولياء نعمهم المستعمرين بمنتهى الدقة والإلحاح، فى سبيل تنشئة أجيال الشباب فى المدارس والجامعات، على الشك والتمرد والإلحاد فى الدين وقيمه، وفى الديان - جل علاه - باسم التحضر والتقدمية أو العصرية».

ثم يرجو الكاتب بعد ذلك من الحكام أن يعملوا على توطين الإسلام فى بلاده توطينًا حقيقيًّا فى التربية والتعليم وفى التشريع.. بعد أن عمل المستعمرون والعلمانيون من عملائهم فى «تطفيش» الإسلام، وتهجيره من بلاده.. إلخ.. ثم يقول: «لقد اختبأ العدو الحقيقى، ليدير المعركة بحرية من حجرة العمليات الخفية بجيوش من العملاء المستوطنين، جهزهم بالمال والعلم والمناصب والنفوذ، ليحققوا ما عجز هو عنه فى حال ظهوره، من قتل دعوات الإصلاح الدينى فى مهادها، والحيلولة بين أمة الإسلام، وكل تشريع يحاوله المخلصون لسيادة الإسلام فى مجتمعاته.

---

(١) يراجع نص الدستور التركى عن فصل الدين عن الدولة اعتناقًا للاتكية الدولة وعلمانيتها ودهريتها، ومعنى اللاتكية كما حددها أتاتورك «أن الدين شىء والدولة شىء آخر، كل منهما منفصل عن الآخر لا يتحدان، ولا يتدخل الدين فى شئون الدولة».

ورأى كاتب آخر:

وأضيف إلى ذلك رأى الأستاذ الباحث والمفكر الإسلامى «أنور الجندى» الذى أثرى المكتبة الإسلامية بعشرات الكتب الهادفة التى كشف فيها عن جوهر الإسلام الأصيل، كما كشف عن الأسلحة المسمومة التى وجهها للإسلام أعداؤه، وبين لقرائه زيفها وخطرها، وأصدر من بين كتبه هذه كتاب «سقوط العلمانية»[١] قدم للقراء فيه هذه «العلمانية» بأبعادها وأهدافها، ونشأتها، وسلط عليها الأضواء الكاشفة وأظهرها على حقيقتها البشعة أمام أنظار المسلمين.. ليتحاشوها، ويتحاشوا كل داع أو عامل لها.. كما يتحاشى الإنسان السم الزعاف.. واعتبر ما ساقه فى هذا إسقاطًا للعلمانية ونسفًا لها..

وكان له الحق فى الربط بين ما جاء فى الكتاب، وبين عنوانه هذا: «سقوط العلمانية». وأحب أن أنقل لك شيئًا مما جاء فى مقدمة هذا الكتاب ومدخله.. يقول:

«العلمانية» كلمة ذات أكثر من مدلول، وذات تاريخ طويل، وقد انتقلت مع الزمن من معنى إلى آخر، وقد حاول مترجموها عن اللغات الغربية إخفاء حقيقتها حتى لا تصدم الحس العربى، وتبقى فى نطاق العلم، وهو نطاق يرد عنها عادية الاتهام، ويبقى هدفها مختفيًا وراء اللفظ المشتق من أقرب الأسماء إلى نفوس العرب والمسلمين[٢] وهو العلم...

ثم يقول الأستاذ أنور الجندى: «والواقع أن لفظ علمانى هو ترجمة للكلمة اللاتينية Cecular ومعناها فى اللغات الأوربية «لا دينى»

---

(١) نشر دار الكتاب اللبنانى بيروت.

(٢) كتب هذا من سنوات، وكان من العجيب أو من الموافقات العجيبة أن رأينا كاتبًا مسلمًا مصريًا كبيرًا يكتب فى الأهرام فى ١٩٨٤/١٢/١٧ مقالًا كبيرًا يرتكز على أن العلمانية هى العلم، والإسلام يدعو إلى العلم.. فلا تناقض بينها وبين الإسلام.. هكذا وبكل بساطة كأنه لا يوجد فى قرائه من يعلم حقيقتها...
ولذلك توليت الرد عليه فى الأهرام فى ٣ يناير ١٩٨٥ بعنوان «لماذا أغفلت الجزء الخطير من العلمانية...»؟..

وقد نشأت هذه الكلمة (أو هذا الاتجاه) ونمت فى ظل أحداث تاريخية معينة اتصلت بأوربا وبالدين وعلماء الدين، وبموقف الدين والكنيسة من المجتمعات الغربية ومن العلم..

ثم انتقلت هذه الكلمة إلى اللغة العربية، وإلى العالم الإسلامى، مع انتقال مترجمات الفلسفة المادية، وما فرضه النفوذ الاستعمارى من أنظمة تتصل بالقانون والتربية والتعليم أساسًا، وكانت الضغوط القاسية لإحلال القانون الوضعى محل الشريعة الإسلامية، والتعليم على النظام الغربى، بديلا للمناهج التعليمية العربية الإسلامية».

«وهذه الدعوات نمت وترعرعت وشكلت فكر جماعات من الناس أتيح لهم بفضل النفوذ الاستعمارى أمر الصدارة فى مجالات الثقافة والتعليم والصحافة».

«وقد جاءت نكسة ١٩٦٧ توقيتًا للصيحة الجديدة المتقدمة التى أعلنوها»، وأطلقوا عليها «علمنة الذات العربية» بإخراجها من إطار الدين، وكانت الصيحة تنطوى على تعليل واضح، يكشف عن المخطط المرسوم، الذى بدأ ببعض الاقتباسات من الحضارة الغربية فى بعض العناصر، والذى يرى الآن أنه قد جاء الوقت لإتمام الجولة باتخاذ قواعد الفكر الغربى وإطاراته الفكرية والعقلية والنفسية موضع التنفيذ».

وكانت هذه الصيحة تعنى أن مصدر النكسة هو تلك العقلية الغيبية (الإسلامية) وإن تجاوز النكسة يقتضى القضاء على هذه الثنائية بين مفاهيم الإسلام، وبين العلمنة الجزئية التى تداخلت فى فكرها ومجتمعها، خلال هذه المرحلة، فلا بد أن يلقى الفكر العربى نفسه كاملا فى أحضان العلمانية، وبغير ذلك فإنه لن يتجاوز النكسة».

«ومن هنا تبين لنا أن «العلمانية» لم تكن قاصرة على أنها دعوة لفصل الدين عن الدولة، وإنما كان ذلك فى تقرير أصحاب الدعوة، هى المرحلة الأولى، التى تهيئ الفكر والمجتمع لخطوة حاسمة، هى علمنة الذات العربية نفسها» على أساس أن تسقط نهائيا وإلى الأبد كل ما يتصل بتراثها وفكرها ودينها وقيمها القديمة كلها «وهى الشيوعية».

ضرورة التخلى عن الدين:

وإلى هنا وآخذ القارئ معى إلى متابعة حامية منى لهؤلاء العلمانيين الشيوعيين الذين دعوا بعد النكسة إلى أن يتخلى المسلمون نهائيا عن دينهم، لينتصروا على إسرائيل، تأييدًا لما قاله الأستاذ أنور الجندى من قبل عن هؤلاء، وتوضيحًا أكثر له..

أعود بك إلى الأعداد ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤ شهور ربيع الأول ١٣٨٦ هـ مايو ١٩٦٩، وربيع الثانى، وجمادى الأول وجمادى الثانية - أغسطس ١٩٦٩، من مجلة «الوعى الإسلامى» التى أنشأتها وكنت أرأس تحريرها بوزارة الأوقاف بالكويت ١٩٦٥، حيث تابعت فى افتتاحيات هذه الأعداد واحدًا من هؤلاء العلمانيين المتطرفين[١].

وقد قال فى كتابه فى صفحاته الأولى «إن على العرب أن يفهموا أن عليهم أن يختاروا بين إلغاء الوجود العربى التقليدى وبقاء الاحتلال الصهيونى، فيدركوا أن إلغاء الأول هو شرط أساسى لإلغاء الثانى»[٢].

ولا أحد يختار بقاء الاحتلال الصهيونى، فلم يبق إلا إلغاء الدين من حياة العرب. وهكذا.. وقد قلت فيما قلت تعليقًا على هذا العدد ٥١ من المجلة: «أيجوز لأمة أو دولة تنتسب للإسلام أن تسمح بمثل هذا الكلام؟ أيجوز لدولة تعلن ولاءها للإسلام ورسوله أن تشجع مثل هذه الدعوة التى تهدم كلامها عن الإسلام وولاءها له، وتنقضه من الجذور؟..

---

(١) لم أشأ فى مقالاتى أن أذكر اسمه حتى لا أعمل دعاية له ولا لاسم كتابه، ولكن أذكره هنا وهو الدكتور نديم البيطار وكتابه هو «من النكسة إلى الثورة»، ويدعو إلى الثورة على الدين، وهو ليس من عائلة البيطار وشيخها الشيخ بهجت البيطار فى سوريا كما قالوا لى، ولكنه فلسطينى الأصل، تربى فى الغرب، وتطرف على علمانيته حتى صار من غلاة الشيوعيين، وقد تولى الرد عليه أيضًا الأستاذ جلال كشك فى كتابه «النكسة والغزو الفكرى».

(٢) ارجع لـ ص ٣٠٦ من كتابى «من وحى الإسلام والأحداث» الذى جمعت فيه بعض افتتاحياتى للمجلة على مدار ٥٤ عددًا وشهرًا. طبع دار الكتاب اللبنانى - بيروت.

فلو أنه تناول - بدلا من عبارته تلك عن الدين - بعض الرسميين فقال: على العرب أن يفهموا أن عليهم أن يختاروا بين وجود هؤلاء الرسميين وبقاء الاحتلال الصهيونى، فيدركوا أن إلغاء الأول شرط أساسى لإلغاء الثانى، لو أنه قال هذا الكلام، فماذا يكون مصيره ومصير كتبه؟

«إن هذا هو ما يدمى قلوبنا ويمزقها أسفًا وحسرة على ما صار إليه ولاؤنا للإسلام، لأن الراعى قد انقلب إلى حماية نفسه، ولم يرع الأمانة التى فى عنقه لدينه وأمته».

وفى العدد الثانى ٥٢ تابعته هو وشيعته، بأنه ينتهز فرصة تمزق الأمة من الهزيمة، فيدعوها إلى مزيد من التمزق بالتخلص من دينها، بدلا من أن ينفخوا فى روحها لتتماسك وتقدم وتأخذ بثأرها.. إن هذا لن يهمهم بقدر ما يهمهم نشر مذهبهم الشيوعى، وبأى طريق ولو على جثث أمتهم وتاريخها وأمجادها ودينها..

ولكن الأمة لن تستجيب، بل سترجع إلى دينها، وتلتف حوله أكثر، وهذه تركيا وما فعله «كمال أتاتورك» فيها وفى دينها، وجدناها بعد موته، تعود إلى روحها الأصيلة، ويتجمع الشباب حول نعش رئيس محكمة كان من المناصرين لأتاتورك، ليمنعوا الإمام من الصلاة عليه، وكان «عصمت إينونو» خليفة أتاتورك» قد حضر جنازته فهاجموه، ولم ينقذه منهم إلا الحرس الذى صوب إليهم المسدسات..

وفى هذا عبرة لكل من أوهم نفسه بخيال إخراج هذه الأمة عن دائرة أصالتها، ونزع روحها منها.

وفى العدد ٥٣ تابعت هذا الدعى، بذكر حادثة وقعت منه، وله، قبل سنة فى عاصمة بلد شرقى إسلامى، حين دُعى للمحاضرة فيه، فأفسد الشباب المتدين عليه، وعلى من دعوه قاعة المحاضرات، فما كان من الذين دعوه إلا أخذ محاضرته، ونشرها فى صحيفة شبه رسمية!! وتابعت فى الافتتاحية نفسها مقالا لهذا الدعى فى مجلة «مواقف»[1] التى تصدر فى لبنان بعنوان: «علمنة الانقلاب»،

(١) للتاريخ والذكرى كنت فى زيارة الدكتور الأخ الأستاذ زكى نجيب محمود وهو يدرس فى جامعة=

يدعو فيه إلى ثورة وانقلاب على حكومات الثوار فى البلاد العربية، لأنهم لم (يثوروا على الدين، ويلغوه من الوجود.. ويسيروا على طريق العلمانية الخالصة التى لاتهادن الدين.. حيث يقول فى مقاله:

«إن العلمنة التى أدعو إليها ليست - إذن - اقتباس العلوم الطبيعية والاجتماعية، الآلة والتكنولوجيا والتصنيع، أو فصل الدين عن الدولة، بل هى إلى ذلك تحرير الذات العربية عن إطاراتها الغيبية، وتحديد أبعادها العقلية والنفسية فى تصور (أيديولوجى) انقلابى بنسف الأيديولوجية الغيبية التقلدية»!!

يريد بذلك نسف الإيمان بالله واليوم الآخر، ليتحول المسلمون جميعًا إلى ملحدين شيوعيين ولا يريد بجرد التقدم العلمى والصناعى التكنولوجى، ولكنه يريد أولاً وقبل كل شىء نسف الدين من الجذور..

وفى العدد ٥٤ تابعت مقاله ذاك أيضًا ووقفت عند ما قاله فى آخره:

«لذلك إن تساءل القارئ عن موقفى فى هذا الشأن فجوابى هو:

١ - «أنى أؤمن أن ليس هناك من أديان تاريخية تنكرت فى تعاليمها للعقل الإنسانى وكرامة الإنسان أكثر من الأديان الوحدانية»!.

٢ - أن مساوئ الأديان وشرورها يزيد كثيرًا جدًّا عن غيرها!!.

٣ - أن الأديان الوثنية كانت أخف شرًّا وأكثر عقلانية من الأديان الوحدانية (هكذا) فهى أقل شرًّا لأنها لم تكن تضطهد وتقتل الآخرين باسم آلهتها، كما صنعت الأديان الوحدانية!!.

٤ - أن جميع الأديان التاريخية ماتت، وليس هناك أى سبب يجعل الأديان الحالية فى العالم أكثر حظًّا...

وكان العجيب أن هذا الإنسان وأمثاله يتهمون الإسلام بأنه يشيع الخرافات

= الكويت تتحدث حول هذه المسائل، ووجدت هذه المجلة عنده ويصدرها الشيوعيون فى لبنان فاستعرتها منه، ووجدت فيها هذا المقال.. وأذكر أننى دعوته ليكتب فى مجلة «الوعى الإسلامى» فاعتذر يومها بأن حصيلته من القراءة العربية حتى الآن قليلة ولا تعينه على الكتابة فى «الوعى» فقبلت اعتذاره، وقدرت فيه صدقه معى ومع نفسه..

والأساطير والأوهام، ويدعون من أجل ذلك للقضاء عليه، فى حين يمجد الأديان الوثنية وهى قائمة أصلًا على الخرافات والأساطير!!

وهو وأمثاله يعتبرون الفكر الثورى القائم فى البلاد العربية وقتها - فى مصر وسوريا والجزائر إلخ - فكرًا إصلاحيًّا، يحتاج إلى ثورة عليه، لأنه لم يثر على الأديان بل عايشها وتركها ولم يقض عليها!! وهم لهذا لا يرضون عن هؤلاء الثوار العرب وحكوماتهم، بل يدعون للانقلاب عليهم انقلابًا يحقق العلمانية المتطرفة وهى الشيوعية..

وقد أخذت مقالاتى الأربع فى متابعة هذا الكاتب وشيعته من ص ٣٠٣ إلى ٣٢٨ من كتابى «من وحى الإسلام والأحداث»، الذى ضم بعض مقالاتى الافتتاحية فى «الوعى الإسلامى»، على مدى أربع سنوات وشهور..

وكانت هذه المقالات فى متابعة هؤلاء العلمانيين المتطرفين بالنسبة لى مسك الختام فى المجلة، إذ تركتها بعد ذلك وعدت إلى مصر فى آخر سنة ١٩٦٩ عن طريق بيروت. فكان لى فيها اشتباك مع هؤلاء العلمانيين على صفحات صحفها:

وفى بيروت: توقفت قليلا فى طريق عودتى، وكنا فى ديسمبر ١٩٦٩، وكانت جريدة «النهار» تصدر ملحقًا أسبوعيًّا، فوجدت فى هذه الملاحق هجومًا على الإسلام من الكاتبين: صادق العظم السورى، وكاتب ياسين الجزائرى، وغيرهما.. وأردت أن أرد عليهما ولكن الوقت كان ضيقًا..

وهنا عرض علىّ الصديق الأديب الصحفى الأستاذ «زهير ماردينى» أن يأخذ هو وزميل له من جريدة «الجمهورية» اللبنانية منى حديثًا صحفيًّا ينشر فى الجريدة سريعًا وفى مجلة «الجديد» التى يشرف عليها الأستاذ زهير.. وكان حلا طيبًا..

وجاء وأخذ منى حديثًا طويلا نشرته «الجمهورية» على صفحة وبعض صفحة فى ١٩٦٩/١٢/١٣، ونشرته «الجديد» على عدة صفحات، وتطوعت جمعية التوجيه الإسلامى الخيرية فى طرابلس، فنشرته فى كتيب تحت عنوان «الطابور الخامس».. وطبعت منه آلافًا وزعته فى أنحاء العالم العربى. ومن الحوار تعرف

ماذا قال هؤلاء من كلام خطير يتفق فى النهاية مع ما قاله زميلهم «نديم البيطار» من دعوة إلى «علمنة» متطرفة، تقضى على الإسلام من جذوره..

وقد قدمت «الجمهورية اللبنانية» و «الجديد اللبنانى» للحديث بكلمات، قالت الجمهورية: «فى غمرة الأحاديث والمقالات التى أخذت تملأ صحف ومجلات بيروت، وكلها تدعو إلى الثورة على الدين، أى دين، وتعمل تحطيمًا فى المفاهيم الروحية التى يقوم عليها الدين، فى غمرة هذه الموجة المادية كان لابد أن يتصدى رجال الدين للأهداف والغايات البعيدة لها، فاضحين مراميها، واضعين النقاط فوق الحروف فيما تناولته الحملات من مواضيع وجوانب».. وقد اغتنمت «الجمهورية» فرصة وجود الأستاذ عبد المنعم النمر فى «بيروت» فأجرت معه هذه المقابلة، وأثارت فيها قضية الحملة المركزة على الأديان.. إلخ.. وبدأت أسئلتها التى أقتطف هنا بعضها لطولها.

س: هل تتابعون كل ما ينشره الفكر الحديث حول قضايا الثورة على الدين فى الصحافة العربية؟

جـ: بالطبع فإنى أتابع ما ينشر منذ أوائل الخمسينيات حتى الآن بقدر المستطاع فى صحف مصر وغيرها من البلاد العربية، وأعرض ما أقرؤه من الأفكار الحديثة على معلوماتى من الناحية الإسلامية..

ومنذ أن أسندت إلىّ رياسة تحرير مجلة الوعى الإسلامى فى الكويت فى مايو (أيار) سنة ١٩٦٥ وحتى الآن كنت أتابع ما ينشر عن قضايا الدين، وعلى الأخص الدعوة إلى تحطيم الدين، وكنت أعلق عليه. وآخر ما اطلعت عليه فى هذا هو ما كتبه الدكتور «نديم البيطار» فى كتابه «من النكسة إلى الثورة» وما نشره فى مجلة «مواقف» اللبنانية، وعلقت عليه فى المجلة وناقشته على مدى أربعة أعداد.

س: بماذا تلخص وجهة نظر البيطار؟

جـ: وأجبت عليه بما لا يخرج عما ذكرته عنه فى ردى عليه بمجلة الوعى.

س: «كاتب ياسين» كتب فى ملحق النهار تحت عنوان «يجب أن ننزع الأقنعة»

فكل ثورة ترفض مكافحة الأديان هى خائنة، فهل قرأت هذا؟.

جـ: نعم. قرأته ورأيت فيه صورة من تعصب الشيوعى الأعمى لمبادئه حتى أن «كاتب ياسين» ترك وطنه الجزائر. وثار على الثورة هناك، لأنها فى رأيه لم تكافح الدين، وتنسفه من الجذور، وليس هو الوحيد فى هذا المجال بل يلتقى مع أنسى الحاج مع الشيوعيين الآخرين مثل نديم البيطار وصادق العظم وغيرهم.. والذين يصدرون مجلة «مواقف» هنا ويكتبون فيها مركزين جهودهم على هدم العقيدة الدينية فى نفوس العرب، إنما يقومون بدور الطليعة فى الشرق للشيوعية. وهذا ليس غائبًا عنى..

والغريب فى فهم «كاتب ياسين» وإن لم يكن غريبًا على شيوعى متعصب، أنه يصور الاستقلال الوطنى فيقول بالنص: «الاستقلال الوطنى ليس شيئًا إذا لم يوافقه نضال ضد القوى الرجعية، وضد التيارات الدينية وتأثيرها فى الدرجة الأولى».

وكأن الدول التى لا تحارب الأديان، وتنسفها، غير مستقلة، مثل إنكلترا وفرنسا وغيرهما، وكأن إسرائيل التى تقوم أصلا على الدين، وتقتفى آثار أنبيائها، دولة غير مستقلة!! وهذا من أغرب ما عرفنا من التفكير، وكأن تشيكوسلوفاكيا والدول التى تدور فى الفلك الروسى هى الدول المستقلة..

إن إسرائيل فى قيامها وأصلها، إنما كانت وليدة الفكر الدينى، وما جاء فى كتبهم الدينية، ولا يزالون حتى الآن ينفذون - بتعصب - هذه التعاليم، حتى رأيناهم مثلا يوقفون العمل والبث التليفزيونى فى ليلة السبت ويومه. ورأيناهم يذكرون وصايا أنبيائهم، ويرسمون كثيرًا من مخططاتهم على ضوئها، ويعلنون فى كثير من المناسبات أن كتبهم الدينية قالت كذا.. وكذا.. وأنبياءهم قالوا كذا..

ورأيناهم يذهبون إلى حائط المبكى حفاة، وعلى رأسهم كبار رجال الدولة غداة النصر، لأنهم حققوا الوعد الموجود فى كتبهم الدينية.

ويقول الحاخام الأكبر: «إن كل ما وعد به أنبياء التوراة قد تحقق»، ورأينا صحفنا العربية تنشر قولا قاله ابن غوريون يقول فيه: «إن على إسرائيل أن

تتمسك بمبادئ أنبياء العبرانيين القدامى.. ورأينا وسمعنا كثيرًا.

فهل أدى تمسك هؤلاء بدينهم إلى انكسارهم؟ أعتقد أن تمسك هؤلاء بقيم دينهم واتباعهم لكتبهم، هو الذى بعث فيهم الحماس ليجنوا هذه النتيجة الطيبة التى جنوها بفضل تخلى العرب عن دينهم. ثم هل كان تمسك هؤلاء بالدين حائلا بينهم وبين ما وصلوا إليه من علم وصناعة؟!!

ولكن ماذا نقول للببغاوات عندنا الذين باعوا أنفسهم للشياطين؟.

إن هؤلاء الشيوعيين يدعوننا إلى ترك الدين لنتفوق فى العلم، فمتى كان الدين فى يوم من الأيام حائلا بين الإنسان وبين العلم؟ إن نصوص الدين كلها تدعو إلى أن يكون المؤمن متفوقًا فى حياته العلمية والزراعية والصناعية حتى يكون جديرًا بالحياة وبالسيادة.

س: أليس من حق هؤلاء أن يتهموكم بالرجعية وهم يقرءون عن تزمت رجال الدين وتقربهم من الحكام.. ألخ..

جـ: الرجعية عندهم تعنى التمسك بالقديم، ولو كان صالحًا لحاضرنا. والرجعية سلاح يشهرونه فى وجه كل إنسان يدعو إلى احترام الصالح الذى لا يوافقون عليه، ومنه الدين. وهذا تجن منهم علينا يساوى ما يعلنونه من رغبتهم فى هدم الماضى كله لأن فيه الدين.. بل إنهم يعنون هدم الدين خاصة، فإذا كان فى حالة تمسكنا بديننا يتهموننا بالرجعية فهذا شرف لنا.

أما ما يتعلقون به من بعض المواقف التى يقفها بعض رجال الدين من الحكام، أو مما يكتبه بعض رجال الدين من كلام قد يكون بعيدًا عن جوهر الدين. فهم فى هذا كالذى يصطاد فى الماء العكر ويتلمس بعض الأخطاء من أتباع الدين لهدم الدين.. وهذا غير مقبول عقلا ولا شرعًا ومنطقًا.. فإن انحراف بعض الأتباع لمذهب من المذاهب، لا يعنى هدم المذهب أو أن هذا المذهب لا يصلح للحياة، فالعيب على المنحرفين لا على المذهب ولا على الدين، وإذا كانت هناك بعض الكتابات الدينية التى تحتوى على بعض الخرافات أو بعض الأفكار المتزمتة المنحرفة غير الصحيحة، ففى كل أمة من الأمم

الناهضة تجد مثل هذا المظهر، وفى الغرب وفى روسيا تجد كثيرًا من الخرافات السائدة بين الناس، وتجد الأساطير التى تستهوى الكثيرين ويعتنقونها، وما حال ذلك دون تقدم الفئة الواعية الناهضة، ولا حمل هذه الفئة على التنكر لدينها والدعوة إلى نسفه من الجذور، على أنه بجانب هؤلاء القليلين الذين يعيبون عليهم تزمتهم أو تخريفهم، يوجد كثير من العلماء الواعين الفاهمين الذين يكتبون بنصاعة فهم عن دينهم، وينفون عنه تخريف المنحرفين وإنحراف المنحرفين.

أما ما يأخذونه على بعض العلماء من تقربهم للحكام فظاهرة لم تخل منها أمة ولم يخل عنها عصر وهؤلاء يسقطهم الناس والتاريخ من حسابهم.. وهم قلة، يجوارهم كثرة من العلماء الذين لهم مواقف على مر التاريخ من الحكام، ولهم دعواتهم الجريئة للإصلاح. وإنك لتجد الذين قادوا حركة الإصلاح فى الشرق، إنما هم علماء الدين فى كل أمة، مثل جمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، وابن باديس، والسنوسى، ومحمد بن عبد الوهاب وغيرهم. والذين قادوا ثورة ١٩١٩ فى مصر هم من أبناء الأزهر وعلمائه، والذين قادوا حركة التمرد ضد الإسرائيليين حين دخلوا القدس هم رجال الدين، وفى مقدمتهم الشيخ عبد الحميد السايح..

فلماذا ننسى موقف هؤلاء المصلحين من العلماء وإخوانهم ومواقفهم المشرفة فى النهضة السياسية والدينية والاجتماعية، ونذكر هؤلاء التافهين الذين لا وزن لهم بين أممهم وقد خانوا أمانتهم.. ولا يخلو من أمثالهم مجتمع؟ لا يفعل ذلك إلا مغرض يتلمس أوهى الأسباب التى تخدم غرضه، غاضًا النظر عن النواحى الأخرى المجيدة فى المجال الذى يناقشه، وهذا ليس من دأب المنصفين أحرار الفكر.

س: لابد أنكم اطلعتم فى مجال قراءاتكم هذه على ما قاله صادق العظم فى «ملحق النهار» من أن فى الإسلام أساطير وخرافات، وردت نصوص عنها فى القرآن. ودعوته إلى تحرير الشعوب من الشعور الدينى المسحوق تحت ثقل الطقوس والشعائر الجامدة. فما رأيكم فى هذه الدعوة للتحرر من الغيبيات إلى الملموسات؟.

جـ: إن صادق العظم يسير فى نفس الاتجاه الذى يسير فيه زملاؤه كالبيطار وكاتب ياسين وغيرهما، ولكنه كان أشد منهما جرأة حينما تناول القرآن نفسه، وذكر أن فيه أساطير وخرافات، وضرب لذلك مثلا بالجن والملائكة من الأمور الغيبية، التى لا يمكن للإنسان التوصل إلى معرفتها عن طريق التجربة والحواس، فهو متفق معهم فى الدعوة لهدم المعتقدات الغيبية، وأولها فى نظرهم كما صرح به الآخرون وجود الله، وبالتالى ما أخبر به فى كتبه المنزلة جميعًا من وجود ملائكة وجن وروح.

وما داموا متمسكين بالعلم، فإنى أريد أن أناقشهم مناقشة عقلية أيضًا فأقول: الإيمان بما غاب عن حواسك أو بما تعرفه أمر طبيعى فى فطرة الإنسان لابد منه فالإنسان إذا لم يؤمن بأن هناك أشياء موجودة خلاف ما يراه ويسمعه، يصبح حيوانًا لا عقل له، فأنت حين تعيش هنا لا يمكن أن تقطع الصلة عقليًّا أو نفسيًّا بينك وبين الموجودات فى الكون، ومعرفتك بما هو فوق حواسك وبعيد عنها ضرورى، قد تصل إلى هذه المعرفة عن طريق السمع أو العقل، وأنت فى هذه الحالة تزن هذا الشىء المنقول لك وتزن قائله، ثم تصدقه أو لا تصدقه حسب ثقتك فى الناقل... ونحن فى معارفنا بما هو غائب عنا، وبما أخبرنا الله ورسوله به من أمور غيبية، لا يمكننا إخضاعها للتجربة كالمسائل المادية، ومن جهل الإنسان وغروره أن يقتصر فى معارفه على منفذ واحد ويسد المنافذ الأخرى الممكنة.. فيقتصر على المعلومات الناتجة عن المسائل الرياضية والتجريبية، ويرفض المنفذ الآخر الذى هو ضرورى أيضًا للإنسان ولا يمكن إخضاعه للمختبرات. بل لأساليب أخرى غير مادية هى الثقة فى الناقل فإذا وثقنا به كان علينا أن نصدقه. والإنسان ليس مادة فحسب بل مادة وروح، والمعلومات كذلك ليست كلها مادية..

فإذا جاء الأنبياء وأخبرونا عن ربهم أن شيئًا ما موجود، وليس عندنا إمكانات لفحصه كان من الضرورى أن نصدقهم.. وأصحابنا هؤلاء يفعلون ذلك فى الأخبار الغيبية التى تصل إليهم، وتجدهم يصدقون من يثقون به بمجرد نقله للخبر.. فنحن نصدق الأنبياء فيما ينقلونه إلينا عن ربهم..

س: حتى وإن رفضها العقل؟

جـ: العقل ليس مجاله فحص هذه الأمور الخارجة عن طوقه وقدرته، ولذلك يكون من السفه أن نحكم فيها، ولذلك تنتقل هذه الأخبار إلى مجال الثقة بالناقل أو عدم الثقة به. فالعقل بقصوره لا يستطيع أن يبحث فى كنه ذات الله.. لذلك نجد فى الحديث «تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا وتضلوا»، والإنسان لا يزال قاصرًا عن إدراك ذاته هو حتى الآن. قاصرًا عن إدراك ذات القوة الكهربية، ولكنه يعرفها بآثارها، كما نعرف الله بآثاره.

لذلك كان الإيمان بالغيب هو محك الإيمان بالله ورسله، لأنه يعبر عن مدى ثقة الإنسان فيهم، وتصديقه لكلامهم هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن مبدأ الإيمان بالأشياء المغيبة عنا هو الذى يدفع العلماء إلى البحث فى هذا الكون؛ إذ لو لم يكونوا مؤمنين بأن هناك أشياء مغيبة عنهم لا تعرفها حواسهم، لما أتعبوا أنفسهم فى الجرى وراء اكتشافها..

ولذلك قلت إن الإيمان بالغيب أى غيب دنيويا كان أو أخرويا، هو أمر فطرى فى الإنسان، وضرورى لتقدم هذا الإنسان ماديًّا وروحيًّا. ولا يمكن لأى واحد من هؤلاء أن ينكر أن فى الكون أشياء غائبة عنه، ويمكن فى أى وقت من الأوقات أن نصل إلى معرفته.

ومن رحمة الله بنا وبحواسنا، أن جعل هذه الحواس محدودة بطاقة، تتفق مع قدرتنا على هذه الحياة.. ولذلك نجد أحد علماء السمع والبصر «البروفسور ب قدربانستف» فى كتابه «أصوات لا تسمع»، يعتبر عدم حساسية الأذن البشرية للاهتزازات ذات الترددات المنخفضة، من النعم العظيمة التى يتمتع بها الإنسان، فهى تحاول دون سماعه لضربات قلبه، ولولا ذلك لكان لضربات القلب ضجيج لا ينقطع».

وأضيف إلى هذا أن من رحمة الله بنا أن حجب عنا كثيرًا من المغيبات التى يعلمها هو، فقد حجب عنا مايجول فى نفوس أصدقائنا ومن حولنا.. ولو أنه كشفه لنا

وكان باستطاعتنا معرفة ما يدور فى نفس صاحبه، ومن نعايشه لكانت الحياة جحيمًا لا يطاق. ولذلك قيل: «لو تكاشفتم ما تدافنتم»، وتمكن عداء الإنسان للإنسان حتى يتركه وهو ميت تنهشه الكلاب. وعدم معرفة الإنسان بالغيب الذى فى نفس صاحبه ليس دليلا على عدم وجوده، ونحن نؤمن حتمًا بأن فى نفس صاحبنا شيئًا. لكن ما هو؟ لا نعرفه.. وتلك رحمة من الله بنا على كل حال..

على أن كبار العلماء الذين يعتز بهم هؤلاء، لم يقفوا عند المادة والإيمان بها، بل تخطوها إلى الإيمان بما وراءها فيقول «اينشتاين»، وهو من أكبر علماء الكون ومظاهره: «إن أعظم جائشة من جائشات النفس وأجملها، تلك التى تستشعرها النفس عند وقوفها فى روعة أمام هذا الخفاء الكونى، إن الذى تجيش نفسه لهذا ولا تتحرك عاطفته، إنما هو حى كميت، إنه خفاء لا نستطيع أن نشق حجبه، وإظلام لانستطيع أن نطلع فجره، ومع هذا نحن ندرك أن وراءه شيئًا هو الحكمة أحكم ما تكون، ونحس أن وراءه شيئًا هو الجمال أجمل ما يكون».. إلى أن يقول: «إن دينى هو إعجابى فى تواضع بتلك الروح السامية التى لا حد لها، تلك التى تتراءى فى التفاصيل الصغيرة القليلة التى نستطيع إدراكها بعقولنا الضعيفة، العاجزة، وهو إيمانى العاطفى العميق بوجود قدرة عاقلة مهيمنة تتراءى حيثما نظرنا فى هذا الكون المعجز للأفهام، إن هذا يؤلف عندى معنى الله».

وإلى هنا أحس أننى قد أطلت فى النقل عما كتبته ردًّا على هؤلاء العلمانيين، فلا أرى داعيًا للاستمرار فى عرض الباقى منه مع أهميته. وعسى أن يكون له مجال آخر يظهر فيه..

فلننتقل إلى مناوشة أخرى حول العلمانية. مناوشة أو معركة صحفية جديدة (طازة) مع رجل له قدره الفكرى بيننا.. ولما يكتبه تأثير كبير على قرائه.

ومناوشات عندنا حول العلمانية:

ويحاول بعض الأساتذة الكبار الذين نجلهم عندنا أن تستظل نهضتنا بالعلمانية الغربية، ويحاولون أن يدسوها لنا تحت دعاوى براقة، وبأحد وجهيها، مخفين الوجه الآخر!!

فقد كتب الدكتور زكى نجيب محمود فى الأهرام ١٩٨٤/١٢/١٧م، ١٤٠٥/٣/٢٤هـ مقاله الأسبوعى الكبير عن «العلمانية»، وركز على أنها بفتح العين، ورمى بالجهل كل من نطقها بكسر العين، مع أن الذين ينطقونها بالكسر إنما ينسبون هذا الاتجاه العلمانى فى أوربا، إلى العلم التجريبى المادى، وعدم اعتراف العلماء هناك أو عدم احتفالهم بأى علم يأتى عن غير طريقه، فأنكروا كل علم غيبى، وأنكروا بالتبعية الأديان وكتبها، وما جاءت به تتحدث عن الغيبيات... إلخ.. وهذا الاتجاه فى جملته هو نفس اتجاه العلمانية الذى تحدثنا عنه، وقلنا إنها لا تعتمد إلا على علم الإنسان وعقله مستبعدة الدين وآراءه.

فلا بأس إذن من أن ننسب هذا الاتجاه إلى العلم بكسر العين الذى كان معبود أوربا فى نهضتها.. ولا سيما الفلاسفة الماديين.. وهذا خلاف شكلى على كل حال فلا داعى للتحكم، وليس هذا هو المهم...

لكن المهم فى مقال الدكتور زكى، أنه سخر من الذين يهاجمون «العلمانية» سخرية لاذعة، ولأجل أن يبرر سخريته هذه التى لم تكن مناسبة، انطلق يعرف العلمانية، ويبين للناس مفهومها، ومع الأسف اقتصر على جزء ووجه براق من هذا المفهوم، ليس أهم من الجزء الذى أخفاه لخطورته، إلا أنه عنى بإبرازه وكتب عنه المقال الكبير كله ليبرر- كما قلنا - سخريته من الذين يهاجمون العلمانية.

وهذا الجزء الذى أظهره من العلمانية هو إقبالها على العلم بمختلف أنواعه وفروعه.. وقال كيف يهاجمها المهاجمون، والإسلام نفسه قد دعا إلى العب من العلم عبًّا.. إلخ ؟!!.

وأخفى الجزء والوجه الآخر الخطير من العلمانية، والذى من أجله يهاجمها المهاجمون ويستنكرونها، وقد أثار هذا دهشتى ودهشة الكثيرين.. فكيف يخفى الدكتور على قرائه هذا الجانب الخطير من العلمانية؟ وهو الأستاذ الكبير والأمين على قرائه وتلامذته، وكانت الأمانة التى يحملها تقضى عليه بعرض العلمانية عرضًا كاملا، ذاكرًا أهم وأخطر جانب فيها.. لكنه لم يفعل، إذ لم يكن هذا العرض الكامل من مصلحته، ولا متفقًا مع سخريته من الذين يستنكرونها، وإلا عادت السخرية عليه..

ولذلك كتبت ردًّا عليه وعنوانه: «لماذا أغفلت الجزء الخطير من العلمانية، وهو عزلها الدين عن الحياة ؟».

وقد نشرته الأهرام بعد اختصار أجزاء[١] منه، فى يوم الخميس ٣ يناير ١٩٨٥ م، وقد اقتضانى الرد أن أبين للقراء حقيقة العلمانية التى أخفاها الدكتور، من واقع آراء الفلاسفة والمفكرين الغربيين، ومن واقع الحياة فى الغرب.. وفى الشرق الشيوعى. ونظرًا لأن الأهرام اختصر جزءًا منه، رأيت أن أضعه هنا بنصه أمام القراء:

(١) مع تغيير فى العنوان إذ كان.. (وهو فصلها الدين عن الدولة) فذكروا بدلًا منه وهو عزلها الدين عن الحياة حتى لا تذكر الناس بما ثار منذ سنوات عن الدين والدولة. وهو قريب مما كتبته على كل حال..

obeikandl.com